الحجج الشبه منطقية في قصة سيدنا موسى عليه السلام

أ: عرابي أمحمد

جامعة معسكر

مقدمة:

ظهرت الدراسات اللغوية منذ ظهور العلوم المعرفية المختلفة المسايرة لتطور الحضارات الإنسانية، إلا أن الاهتمام باللغة كان على الدوام يشكل قطب الرحى في مختلف الدراسات العلمية والمعرفية، سواء أكانت هذه اللغة طبيعية أم اصطناعية أم رمزية، الأمر الذي أدى إلى تفرع الدراسات اللغوية المختلفة من نحو وصرف ودلالة وغيرها.

إلا أن التحول الحضاري الفكري في رحاب الحضارة الإنسانية الذي شهده القرن التاسع عشر والقرن العشرين، خاصة بعد الثورة العلمية التي أحدثها "فيرديناند دي سوسير F.de Saussure "تعد قطيعة ابستيمولوجية معرفية مع الدراسات اللغوية التي كانت قبلها، الأمر الذي أدى إلى ظهور الدراسات اللسانية الحديثة باتجاهاتها الثلاثة الكبرى البنيوية والتوليدية التحويلية والتداولية.

ترجع البدايات الأولى للتداولية إلى بداية القرن التاسع عشر مع "شارل موريس Charle Morris"و"فريج Frege" كطرح فلسفي، لتتبلور بعد ذلك في الدراسات اللغوية في الخمسينيات من القرن العشرين مع محاضرات "جون أوستين J. Austin " التي ألقيت في جامعة هارفارد ضمن برنامج محاضرات "وليام جيمس Willam James Lectures". وكان ذلك سنة 1955، وهو ما يعد التأسيس الفعلي للدرس التداولي المعاصر، متمثلا في ظاهرة الأفعال الكلامية التي تجلت لدى "أوستينJ. Austin "من خلال كتابه " كيف ننجز الأشياء بالكلام"، لتتطور الرؤية بعد ذلك وتتبلور بشكل أوسع عند تلميذه "سيرل Searle".

ومع نهايات القرن الماضي توسعت اهتمامات التداولية لتطال موضوعات أخرى لها صلة مباشرة بالاستخدام الفعلي للكلام، كاستراتيجيات الخطاب، واقتضاء الكلام، والحجاج اللغوي. وقد جلب الأخير اهتمامي منذ ان اتخذ من اللسانيات التداولية محورا له.

بعد اطلاعنا على أهم المحطات التي مر بها الحجاج اللغوي، بداية مع الفلاسفة اليونان، مرورا بالحضارتين العربية الإسلامية والغربية. وإلى يومنا هذا، اتضح لي جليا أن الحجاج شكّل على الدوام ضرورة إنسانية، حيث أن الجماعة البشرية على اختلاف لُغاتها، ودرجة تطورها، وتباين عقلياتها، تصبو دائما فيما بينها، وفي محاوراتها مع غيرها، إلى إقناع الآخر حول ما تبسطه من آراء و رؤى ومفاهيم، وتحمله على الإذعان لها؛ تلك طبيعة البشرية في كل زمان ومكان. وقد تجلت هذه الظاهرة بأوضح ما يكون في الخطاب القرآني، فما زال القرآن وسيبقى على مر الأزمنة والعصور، يحاجج العقول بشتى الطرق بالحجة و البرهان، بالأمثال والحكم، بالرمز والتصوير، ليدعم إيمان المؤمن ويلطِّف من عناد الكافر.

ومن هذه المعاينة خطر لي أن أجمع بين الاهتمامين :الحجاج بأبعاده التداولية المعاصرة ممثلة على الخصوص في الطرح الحديث الذي تقدم به كل من "بيرلمان Perelman وزميله تيتكا Tyteca" في مصنفهما الموسوم بـ "مصنف في الحجاج – البلاغة الجديدة، raite de l'Argumentation- Nouvelle Rhétorique". والقرآن الكريم كمدونة تطبيقية تنجلي فيها أضرب الحجاج على اختلاف أنواعها. وارتأيت، من باب التحكم في الموضوع، حصر المدونة في قصة موسى –عليه السلام– باعتبار أنه من أكثر الرسل مُحَاجَّة للكفار؛ فقد حاجّ الرؤوس الثلاثة الأكثر انغماسا في الشرك والإلحاد وهم: فرعون

المنارة للاستشارات

www.manaraa.com

وهامان وقارون، كما أنه –عليه السلام– قد أفنى عمره في كسر عناد بني إسرائيل مستعملا شتى أضرب الإقناع، ولذلك ارتأيت أن توسم هذه المداخلة بـ: **الحجج شبه المنطقية في قصة موسى عليه السلام.**

والمراد من هذا الجمع بين النظرية الحجاجية المعاصرة والقرآن الكريم وهو الخطاب الكوني الذي لا تنضب دلالاته، هو الوقوف على تقنيات ومقاصد الشرع الحكيم في توظيفه للحجاج، ومدى قابلية المحاجَّة القرآنية في التغلغل داخل العقول الأكثر إلحادا أو عنادا لحملها على الاقتناع والإذعان للحكمة الإلهية، ففيما يتجلى ذلك في الخطاب القرآني الكوني بعامة، وفي قصة موسى بخاصة؟

لمعالجة هذه الإشكالية ارتأيت تأسيس هذه المداخلة على مجموعة من المفاهيم النظرية، أردفتها بتطبيقات على قصة سيدنا موسى عليه السلام وهي.

- مفهوم الحجاج في اللغة والاصطلاح.
- الحجج الشبه منطقية في قصة سيدنا موسى عليه السلام. وهي الطرائق الاتصالية الشبه منطقية التي تتسم بملامستها لقواعد المنطق وتتميز بالنسبية وعدم الإلزام. وتنقسم بدورها إلى قسمين :

أ. الطرائق المؤسسة على البنى المنطقية و المعتمدة على المنطق الطبيعي الذي هو جزء من البنية العقلية عند الإنسان. وتندرج تحتها أنواع ثلاثة هي:

- حجة التناقض وعدم الاتفاق الذي يُؤسِّس تناقض حدِّي قضية في سياق واحد.
- حجة التماثل والحد في الحجاج(الهوية والتحديد والدور)، الذي يقتضي التعريف بالفكرة وضبط حدودها عن طريق الكلمات التي تتفق أو تتشابه لفظا وتتنوع دلالة.

- أما الحجة القائمة على العلاقة التبادلية فتقوم على مبدأ العدالة بين الأفراد والقضايا التي يربطها رابط سببي واحد.

ب. الطرائق المعتمدة على البنى الرياضية و التي تتأسس في تشكيل علاقاتها الداخلية وتلاؤمها على العلاقات الرياضية؛ وهي أنواع ثلاثة :

- حجج التعدية والتضمن والتقسيم والتي قوامها أن ما ينطبق على الكل ينطبق على الجزء وما ينطبق على الجزء ينطبق على الكل.
- أما حجة المقارنة فتتأسس في جوهرها على عملية القيس.
- الحجة القائمة على الاحتمال و ترتكز على مبدأ النسبية، وتتمثل فيما يمكن أن يحققه المرء من أهداف عن طريق التوقع؛ أي أن نتائجها غير مطلقة.

وفي خضم هذه الرحلة العلمية مع الحجاج اللغوي واجهتني بعض الصعوبات، لعل أهمها صعوبة التعامل مع الخطاب القرآني الذي يفرض على الباحث توخي الحيطة والحذر مع تراكيبه ومعانيه باعتباره نصا مقدسا يصعب تأويله.

ونرجو في الأخير أن نكون موفّقين في هذا الموضوع الّذي بذلنا فيه قصارى جهدنا، حتّى يكون على الوجه الّذي يتماشى و قيمته العلميّة، و لسنا ندّعي مِن خلال ذلك الإتيان بالجديد، بل إنّه جهد المقلّ الّذي يرجو أن يقدِّم لأمتّه النّزر اليسير في سبيل خدمة كُتَّابها و لغتها، فعلّنا أن نكون أصبنا هذا الهدف في هذا البحث الّذي لا يسلم .كغيره مِن البحوث . مِن حاجته إلى التّصويب والتّنقيح الدّائم المتواصل.

يعد الحجاج من أهم المواضيع التي أنتجتها الدراسات اللغوية الحديثة في الحقل اللساني التداولي، باعتباره مجموعة من التقنيات والآليات الخطابية التي تُوَجَّهُ إلى المتلقي بغرض إقناعه والتأثير فيه، وعليه فالحجاج هو« جملة من الأساليب تضطلع في الخطاب بوظيفية هي حمل المتلقي على الاقتناع بما نعرضه عليه أو الزيادة في حجم هذا الاقتناع».[1]

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

تعددت زوايا النظر إلى الحجاج بحسب زاوية نظر الدارسين له؛ فالبلاغة التقليدية نظرت إليه« كمكوّن من مكونات الخطاب ويتشكل بتشكله وتتغير وظائفه وطرقه الاستدلالية بتغيره» [2]. كما تتجلى آثاره في الدراسات التراثية المختلفة وتتعدد بتعدد مجالاتها، غير أنه أصبح في الدراسات الحديثة مجالا خاصا، تضبطه ماهية ومفاهيم خاصة وآليات وتقنيات متعددة أهلته إلى بلوغ مرتبة النظرية اللغوية القائمة على أسس علمية دقيقة.

انبرى رعيل من اللغويين في القرن العشرين لدراسة الحجاج والاهتمام به ومحاولة التنظير له.وقد تناولوا ضمن هذا المسعى الأساليب الإجرائية في لغة الحجاج، وتنوع الخطابات ضمن السياقات المقامية المختلفة وغاياتها واستراتيجياتها، والتي تُعدُّ من صميم البحث في المنهج التداولي اللساني. وقد أطلقوا على الدراسات الحجاجية الحديثة مصطلح البلاغة الجديدة، ويرجع الفضل في ذلك إلى "بيرلمان Perelman " وزميله"تيتكاه Tyteca" عند إصدارهما سنة 1958 لمؤلفهما "مصنف في الحجاج – البلاغة الجديدة .Traite De L'argumentation Nouvelle Rhétorique "، الذي يشمل عنوانين «"مصنف في الحجاج" ويحمل إلى عنوانه الكبير المذكور عنوانا فرعيا تفسيريا هو "البلاغة الجديدة"، وكان هذا العنوان إيذانا بدخول الدراسات البلاغية مرحلة جديدة يعنى فيها بدراسة الحجاج » [3]. وقد شكل ظهور هذا الكتاب « فتحا جديدا وأساسيا في عالم الخطابة الجديدة قد مثل نظرة منطقية للحجاج، إذ استأنف بيرلمان تحليل التفاعل بين الباث والمتلقي في الخطاب المكتوب تحديدا وكان حريصا على الظهور بمظهر المنطقي المتمكن من آليات التفكير، لا رجل بلاغة فحسب» [4].ومن ثم يعدُّ بيرلمان من منظري النظرية الحجاجية.

فالحجاج آلية تجسد الخطاب الإقناعي، وتكمن أهميته فيما يتأكد من إقناع لدن المتلقي عن طريق اللغة، مما يؤكد« أن نظرية الحجاج في اللغة تنطلق من فكرة مفادها أننا نتكلم عامة بقصد التأثير، وأن الوظيفة الحجاجية للغة هي الحجاج، وأن المعنى ذو طبيعة حجاجية»[5]. وذلك ما يفسر أن مجال الحجاج هو حقل اللغة.

1.مفهوم الحجاج:

تقاربت نظرة الدارسين اللغويين لمفهوم الحجاج في اللغة بخاصة ورأوا أنه يضارع الجدل والبرهان اللذان يستدل بهما المتكلم، وله مفهوم لغوي وآخر اصطلاحي.

1.1.الحجاج في اللغة :

الحجاج في اللغة من"حاجَّ يُحَاجِجُ حِجَاجَاً". وقد حده ابن سيده (ت 458هـ) بقوله:« حَاجَجْتُهُ أُحَاجُّهُ حِجَاجَاً مُحَاجَّةً من حَجَجْتُهُ بالحجج التي أدليت بها ،والحُجَّةُ البرهان، وقيل الحُجَّةُ ما دوفع به الخصم، وقال الأزهري: الحُجَّةُ الوجه الذي يكون الظفر عند الخصومة. وجمع الحُجَّةُ حُجَجٍ وحِجَاج. وحَاجَّهُ مُحَاجَّةً وحِجَاجَاً نازعه الحُجَّةُ، وحَجَّهُ يَحُجُّهُ حَجّاً غلبه على حجته، وفي الحديث :" فَحَجَّ آدم موسى"؛ أي غلبه بالحُجَّةِ، واحتج بالشيء اتخذه حجة .قال الأزهري:" إنما سميت حُجَّةً لأنها تُحَجُّ، أي تُقْصَدُ؛ لأن القصد لها وإليها». [6] فالحُجَّةُ عند ابن سيده هي البرهان أو سلسلة الحِجَج التي يستطيع المتكلم أن يفحِم بها المتلقي.

أما ابن منظور(ت 711هـ) فقد ذكره في معجمه وقال: « حَاجَجْتُهُ أُحَاجُّهُ حِجَاجَاً ومُحَاجَّةً حتى حَجَجْتُهُ؛أي غلبته بالحجج التي أدليت بها ... ويقال حَاجَّهُ مُحَاجَّةً وحِجَاجًا نازعه الحُجَّةَ...ويقال أنا حَاجَجْتُهُ فأنا مُحَاجُّهُ وحَجِيجُهُ ؛أي مغالبه بإظهار الحجة التي تعني الدليل والبرهان».[7]فابن منظور حذا حذو ابن سيدة في مفهومه هذا ورأى أن الحجة هي البرهان والدليل.

يتضح من خلال ما سبق أن الحجاج يتجلى في الخطابات التي تهدف للإقناع، وغرضه التأثير في المتلقي أو إرغامه على الامتثال لأمر ما والتسليم به. وهو بهذا يؤسس للدفاع عن الأفكار المعروضة من طرف المتكلم، وأنه يتجسد في مجال النسبية لا مجال الأحكام المطلقة والمنطقية. وهو ما كان محور الدراسات اللسانية التداولية في تناولها لمفهوم الحجاج اللغوي .

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

2.1.الحجاج في الاصطلاح:

تباينت نظرة الدارسين المعاصرين (العرب–والغربيين) لمفهوم الحجاج بحسب تنوع الزوايا التي نظروا إليه: البلاغية واللسانية والفلسفية والأصولية، وهو ما أدى إلى ظهور العديد من المفاهيم المتعددة التي أثرت حقل الدراسات اللسانية بعامة والحجاجية بخاصة ومن أبرز هذه المفاهيم في العصر الحديث نذكر:

2.1.أ.مفهوم بيرلمان Perelman و تيتكاه Tyteca للحجاج :

يرى هذان الباحثان أن«موضوع نظرية الحجاج هو درس تقنيات الخطاب التي من شأنها أن تؤدي بالأذهان إلى التسليم بما يعرض عليها من أطروحات ، أو أن تزيد في درجة ذلك التسليم»[8]. فالخطاب الحجاجي عندهما خطاب واعي يرتكز في أساسه على منتجي الخطاب، وعلى مدى قدرته على بناء نص حجاجي من خلال توظفيه للآليات الحجاجية المختلفة، إذ أنه يحمل الطابع الجدلي الذي يتجسد بين الباث والمتلقي وفق تقنيات معينة يحاول بواسطتها كل منهما إقناع الآخر وإفحامه بحجج منطقية عقلانية.

2.1.ب.الحجاج عند طه عبد الرحمن:

انطلق طه عبد الرحمن من حقيقة الاستدلال في الخطاب الطبيعي ورأى بضرورة هذه الحقيقة الحجاجية لا البرهانية الصناعية. وفي مستهل حديثه عن الحجاج قال: «وحد "الحجاج"أنه فعالية تداولية جدلية، فهو تداولي، لأن طابعه الفكري مقامي و اجتماعي، إذ يأخذ بعين الاعتبار مقتضيات الحال من معارف مشتركة ومطالب إخبارية وتوجهات ظرفية، ويهدف إلى الاشتراك جماعيا في إنشاء معرفة عملية، إنشاء موجها بقدر الحاجة، وهو أيضا جدلي لأن هدفه إقناعي قائم بلوغه على التزام صورا استدلالية أوسع وأغنى من البنيات البرهانية الضيقة» [9]. لأن الاستدلال باعتباره «طلب الدليل» [10]يشمل مجالي البرهان والحجاج معا. وعلى هذا قد يكون غير كاف إذا كان الاستدلال يحمل الصفة البرهانية لتحقيق الإقناع الذي يهدف إليه الحجاج، كأن تبني الانتقالات فيه على الصور مع مضامينها مجتمعة لا على صور القضايا وحدها وأن تحمل هذه الانتقالات ضمنيا الكثير من المقدمات والنتائج وأن يُفْهِم المتكلم المتلقي معاني غير تلك التي نطق بها، أملا في استحضارها من طرف المتكلم إثباتا أو إنكارا كلما تحقق ذلك داخل نفس السياق الاجتماعي[11].

يبدو من خلال هذا المفهوم أن الحجاج عند طه عبد الرحمن يكتسي طابعا تداوليا جدليا، لأنه يأخذ في الحسبان السياقات المقامية والاجتماعية المختلفة، وكذا المعارف والخبرات المشتركة بين المتخاطبين بعامة بهدف الانسجام الحواري التخاطبي بغرض التأثير والإقناع. لذا فالحجاج عنده أعم من البرهان لأنه قائم على صور استدلالية أوسع وأغنى من البنيات البرهانية الضيقة.

فمن خلال هذه التعريفات والمفاهيم المختلفة للحجاج في الحضارتين العربية والغربية، يتضح أن الحجاج فعل خطابي موجه من مرسل لمتلقي، قائم على سلسلة من الحجج تتحقق في سياقات مقامية مختلفة داخل اللغة، تهدف إلى النفي أو الإثبات بغرض التأثير والإقناع.

2. الحجج الشبه منطقية Arguments Quasi –Logiques:

تتميز هذه الحجج الشبه منطقية بملامستها لقواعد المنطق، وتتسم بالنسبية وعدم الإلزام لأن«الحجاج في جوهره ينبذ قانون الكل أو لاشيء؛ أي يرفض الصرامة في ضبط الحدود والفروق، ويجد في المنطقة الوسطى المتشحة بالغموض تربة خصبة»[12].فهذه الحجج في جوهرها تقوم على النسبية، ولا يمكن أن تكون مطلقة، كما يمكن دحضها، وتستند في تأسيسها إلى بنى منطقية وأخرى رياضية. ويتجلى ذلك في الخطاطة التالية:

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

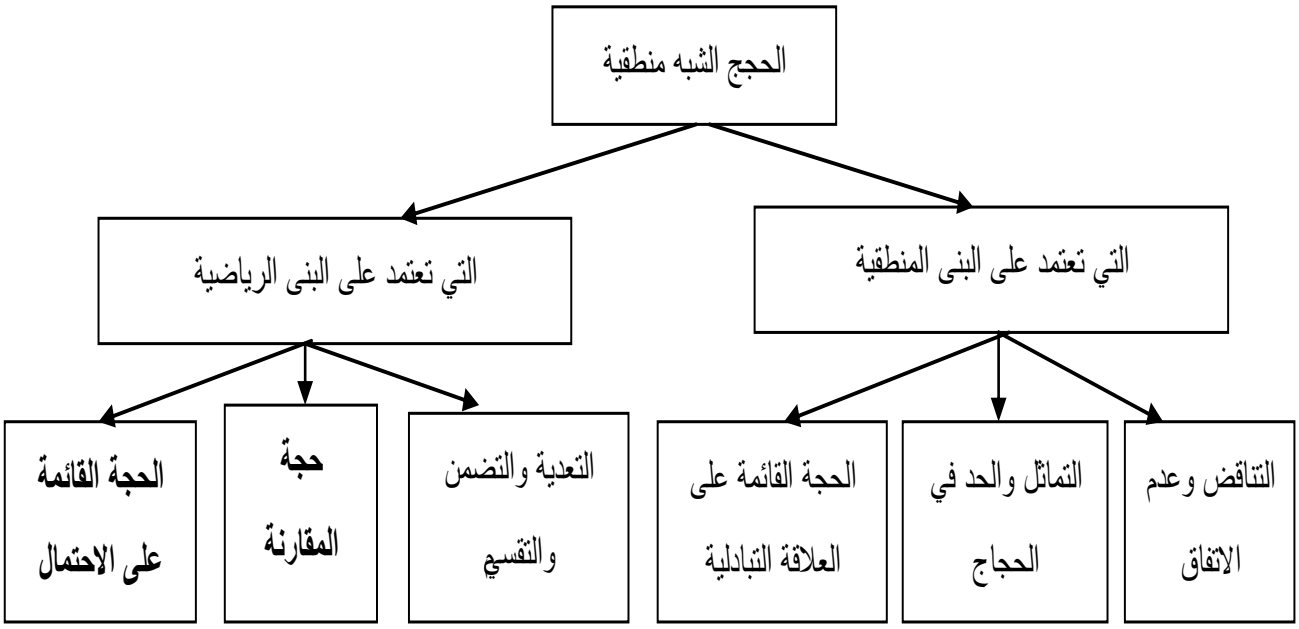

2-1 الحجج الشبه منطقية التي تعتمد على البنى المنطقية :

يطبع هذه الحجج الاعتماد على المنطق الطبيعي، الذي هو جزء من البنية العقلية عند الإنسان، لا المنطق الصوري الأرسطي وعددها ثلاث وهي :التناقض وعدم الاتفاق، التماثل والحد في الحجاج، الحجة القائمة على العلاقة التبادلية.

1.2.أ. التناقض وعدم الاتفاق:

الانعدام المطلق للتناقض في الخطاب القرآني صفة من الصفات الدالة على إعجازه نظما ومعنى، وهو ما أكده القرآن نفسه في مواطن كثيرة، وأعقبه الباحثون بالحجة والتدليل؛ يقول الإمام "عبد القاهر الجرجاني " في باب الكلام في إعجاز القرآن: «وبهرهم أنهم تأملوه سورة سورة، وعشرا عشرا، وآية آية، فلم يجدوا في الجميع كلمة ينبو بها مكانها، ولفظة ينكر شأنها أو يُرَى أن غيرها أصلح هناك أو أشبه، أو أحرى وأخلق، بل وجدوا اتساقا بهر العقول، وأعجز الجمهور. ونظاما والتئاما، واتقانا وإحكاما لم يدع في نفس بليغ منهم-ولو حَكَّ بيافوخه السماء- موضع طمع»[13]؛ وقد عدّ بعضهم اشتمال القرآن الكريم على المعاني الدقيقة مع عدم التناقض في إثباتها وربط العلاقة بينها دليلا آخر من دلائل الإعجاز، « لأن القرآن لم ينزل من السماء لمعاصري الرسول -صلى الله عليه وسلم – من عرب وغيرهم فقط، وإنما نزل لكل زمان ومكان» [14].فالخطاب القرآني خطاب كوني خالي من التناقض. يقول "مصطفى صادق الرافعي" ملخصا هذا المسعى: «وآخرون يقولون بل ذلك في خُلَوِّهِ من التناقض واشتماله على المعاني الدقيقة»[15].كما أشار إلى ذلك ابن حزم الأندلسي (ت: 465هـ) في قوله:«قال علي : وهذه دعوى مفتقرة إلى برهان، فليس الاختلاف موجبا لكونهما معروضين على غيرهم، لأن الاختلاف باطل، فظنهم أنه اختلاف ظن فاسد يكذبه قول الله- عز وجل﴿ **وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا** ﴾[16]، فإذ قد أبطل الله تعالى الاختلاف الذي جعلوه سببا لعرض الحديثين على سنة أخرى أو آية أخرى، فقد وجب ضرورة أن يبطل مسببه الذي هو العرض، وهذا برهان ضروري؛ وبالله التوفيق» [17]. فابن حزم ينفي صفة الاختلاف والتناقض في الكتاب والسنة نفيا قاطعا.

وقد يشمل التناقض اللغة الطبيعية؛ لأن «التناقض الصارخ من قبيل أبيض/أسود نادر جدا في الحجاج فالخطاب الحجاجي قلما يلتجأ إلى الاستدلال بالخلف(Par l'absurde)، ولكنه يحتفل احتفالا واضحا بعدم الاتفاق (Incompatibilite)، إذ يدفع الحجاج أطروحة ما مبينا أنها لا تتفق مع أخرى » [18]. وهو ما يمكن أن نعثر عليه في الخطاب القرآني. ونظير ذلك في قصة موسى –عليه السلام- قوله تعالى: ﴿ **وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُوا بَقَرَةً قَالُوا أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا قَالَ أَعُوذُ بِاللَّهِ**

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ ﴾[19]. فسياق الآية قد استهل بمخاطبة موسى لقومه بأن يذبحوا بقرة امتثالا لأمر الله تعالى، وكان ذلك ردا على سؤالهم المتعلق بمعرفة قاتل الشيخ؛ إذ كان في بني إسرائيل شيخ غني، وله بنو أخ، فهموا بقتله ليلا لِيَرِثُوه، وطرحوه في مجمع الطرق، واختصم فيه الناس، وجاء ابن أخيه فشكا أمر عمه لموسى –عليه السلام – فسأل موسى ربه عز وجل في ذلك، فأوحى الله لنبيه أن يأمر بني إسرائيل بذبح بقرة، فعجبوا من هذا الأمر لمخالفته ظاهر الطلب، وهو ما يفسر عدم الاتفاق بين موسى وبني إسرائيل على لسانهم إذ قالوا﴿ **قَالُواْ أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا** ﴾؛ يعني« أتجعلنا مكان هزو، أو أهل هزو، أو مهزواً بنا، أو الهزو نفسه لفرط الاستهزاء { مِنَ الجاهلين } لأن الهزو في مثل هذا من باب الجهل والسفه» [20].ولذلك قال موسى: ﴿**أَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ**﴾[21].نافيا عن نفسه ما رمي به على طريقة البرهان، وأخرج ذلك على صورة الاستعادة استفظاعا له وتبرئة لذاته.

فتعجبوا من ذلك الأمر، وبالغوا في طلب تحديد البقرة بالاستفهام حالا بعد حال،

واستقصوا في طلب الوصف فلما تعينت عند أحدهم وباعها إياهم بأغلى ثمن، فذبحوها عن مضض وما كادوا يفعلون، ثم أخذوا عضوا منها وضربوا به القتيل، فارتدّ حيا ونطق باسم قاتله. وهو الذي شكاه لموسى –عليه السلام– ليموت بعد ذلك مرة أخرى. فكانت قصة البقرة حجة .

لإثبات دعوة موسى قومه بالعودة إلى درب الإيمان «وهكذا سميت السورة سورة البقرة إثباتا لقضية أساسية في الدين وهي حقيقية الإيمان بالبعث»[22].إن أغلب التفاسير تشير إلى أن موسى كان على وعي بما يفعل بإذن من الله تعالى، وبنو إسرائيل الذين استقبلوا أوامر الله بعدم التصديق والتشديد والاستقصاء،اضطروا إلى الإذعان والاتفاق مع موسى لفظا ومعنى. ولا شك أن من يسأل بغرض الجواب الصريح الصحيح، ويفاجأ برد مغاير لا يدرك حقيقة التسليم بالرسالة، لكن إرادة الله أقوى من ذلك، وهو ما يفسر سر الوحي الإلهي.

1.2.ب. التماثل والحد في الحجاج (الهوية والتحديد والدور):

يقتضي مبدأ التماثل التعريف بالفكرة وضبط وجودها عن طريق الكلمات التي تتفق أو تتشابه لفظا وتتنوع دلالة «كأن يقول أحدنا "الدنيا هي الدنيا" مقدما بذلك تعريفا يفتقر إلى الصرامة المنطقية وإلى وضوح طرفيه » [23]، فقد يتنوع مفهوم الدنيا بحسب تعدد المتلقين، وقد نفهم الدنيا على أنها الحياة أو المرأة أو الغدر أو البؤس. وهناك من يسمي الحد في الحجاج بالتماثل التام، وهو ما أشار إليه محمد سالم محمد الأمين الطلبة بقوله :«أما التماثل التام فمقداره على التعريف الذي يكون فيه المعَرَّف والمعَرِّف متماثلين لفظا، الأمر الذي يجعلنا نعتبر اللفظ الثاني محمولا على المجاز وذلك حتى لا تكون العبارة الثانية حشوا le pléonasme أو تحصيل حاصل»[24]. فالباحث يفرق بين المعنى الحقيقي والمعنى المجازي للكلمات التحديدية التي قد تحمل معاني متعددة، لأن «بعض العبارات التحديدية توفر من حيث الصياغة عبارات دورية" المرأة هي المرأة" و"الدرهم هو الدرهم" إلا أننا نلاحظ في مثل هذه العبارات أن التكرار ليس بالضرورة تكرار للمعنى نفسه، إذ الغالب في هذه العبارات أن التحقق الثاني يحيل على معنى غير المعنى الأول»[25]. ومن نماذج هذه البنية الحجاجية قوله تعالى على لسان فرعون: ﴿ **وَلَقَدْ أَرَيْنَاهُ آيَاتِنَا كُلَّهَا فَكَذَّبَ وَأَبَى قَالَ أَجِئْتَنَا لِتُخْرِجَنَا مِنْ أَرْضِنَا بِسِحْرِكَ يَا مُوسَى فَلَنَأْتِيَنَّكَ بِسِحْرٍ مِثْلِهِ فَاجْعَلْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ مَوْعِدًا لَا نُخْلِفُهُ نَحْنُ وَلَا أَنْتَ مَكَانًا سُوًى قَالَ مَوْعِدُكُمْ يَوْمُ الزِّينَةِ وَأَنْ يُحْشَرَ النَّاسُ ضُحًى** ﴾[26]. فإذا وقفنا على مفهوم اللفظتين "بسحرك و بسحر" لوجدناهما يتفقان لفظا ويختلفان معنى، والفاء في "فلنأتينك بسحر مثله" «لترتيب ما بعدها على ما قبلها واللام واقعة في جواب قسم محذوف كأنه قيل :إذا كان كذلك فوالله لنأتينك بسحر مثل سحرك»[27].فلماذا قال فرعون: ﴿ **أَجِئْتَنَا لِتُخْرِجَنَا مِنْ أَرْضِنَا بِسِحْرِكَ يَا مُوسَى**﴾[28]،ولم يقل جئتني؟فهو بهذه العبارة التي تنطوي على كثير من الخبث، يكون قد نقل مجال الخلاف مع موسى وهارون إلى رعيته، فثاروا دفاعا عن مصلحتهم الاقتصادية المتعلقة بزراعة الأرض وما ينتفعون به على ضفاف

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

النيل، وليس على ألوهية فرعون المهددة بالزوال. ومن ثمَّ سمى فرعون ما جاء به موسى سحرا في نظره ونظر رعيته، وإن كانت هذه التسمية خاطئة في حق موسى- عليه السلام- 29على اعتبار أنها حجج وأدلة أيده الله بها ليثبت ويصبر في مواجهة قوى البغي والشرك ومحاولة إقناعهم، رغم ما كان يعتريه من خوف، إلا أنه رفع معنوياته بمجرد أن استعمل برهانه المادي ممثلا في العصا واليد، الأمر الذي جعل فرعون يحدد يوما يتم فيه النِّزال بين موسى وأتباع فرعون من سحرة [30]، وهو ما يفسر الفرق الجلي بين ما جاء به موسى –عليه السلام- وما جاء به سحرة فرعون، ذلك أن«السحر لا يقلب حقيقة الشيء بل يظل على حقيقته، ويكون السحر للرائي، فيرى الأشياء على غير حقيقتها، كما قال تعالى: ﴿ **سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ** ﴾[31]، فَلَمَّا ألقى السحرة حبالهم كانت حبالا في الحقيقة، وإن رآها الناظر حياة وثعابين تسعى، أما عصى موسى فعندما ألقاها انقلبت حية حقيقية بدليل أنه لما رآها كذلك خاف منها»[32]. فلا يوجد –إذن- تطابق في المعنى بين لفظة السحر الواردة في سياق هذه الآيات، إذ تعني الأولى الحجج والآيات البينات التي أيد الله بها موسى –عليه السلام-لتبليغ دعوته. وتعني الثانية السحر الحقيقي المتداول بين الناس في عهد فرعون. فالمتأمل في الخطاب القرآني يدرك حقيقة ما جاء به رسول موحى إليه من لدن حكيم عليم، وبين ما يدعيه طاغية مغرور يدعي الربوبية .

.ج. الحجج القائمة على العلاقة التبادلية Règle De Réciprocité:

تقوم هذه الحجج على مبدأ العدالة بين الأفراد والقضايا التي يربطها رابط سببي واحد؛ أي أن ما ينطبق على الأول ينطبق على الآخر، لأن« الحجج القائمة على العلاقة التبادلية Les Arguments De Réciprocité تتمثل في محاولة المواءمة بين الحجج العكسية، ويمثل بيرلمان لهذا بمقولة تعتمد فكرة التناظر:" ضع نفسك مكاني"» [33]فالعلاقة التبادلية قوامها التناظر والتسوية بين الطرفين. ويوضح ذلك "ليونال بلنجي Lionel Bellenger " بقوله: «إن الحجاج عن طريق العلاقة التبادلية التي تقوم عليها حجج شبه منطقية عديدة يصبح ممكنا شرط تناسي كل ما يفرق بين الأوضاع وتعديلها لا بشكل تعدو معه متطابقة »[34].

ومن نماذج هذه الحجج في قصة موسى –عليه السلام- قوله جل وعلا: ﴿ **فَأَسْرِ بِعِبَادِي لَيْلًا إِنَّكُمْ مُتَّبَعُونَ وَاتْرُكِ الْبَحْرَ رَهْوًا إِنَّهُمْ جُنْدٌ مُغْرَقُونَ كَمْ تَرَكُوا مِنْ جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ وَنَعْمَةٍ كَانُوا فِيهَا فَاكِهِينَ كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا قَوْمًا آخَرِينَ فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ وَمَا كَانُوا مُنْظَرِينَ** ﴾[35]. فمقام هذه الآيات يتحدث عن بني إسرائيل، حيث أمر الله موسى أن يتقدم هو وقومه، ويتبعهم فرعون وجنوده، فينجي الله المتقدمين ويغرق التابعين [36]، لتنفتح الآيات بعد ذلك على صورة ذات عبرة بالغة لما آل إليه مصير فرعون بعد أن كان هو وجنوده يتمتعون بالمساكن الطيبة والنعم المبسوطة والجنات المخضرة، فقد أهلكهم الله وأورث ملكهم وديارهم بني إسرائيل. فتلك حجة شبه منطقية قائمة على العلاقة التبادلية بين ما شمل فرعون وجنوده من الخيرات والملذات، وانتهت إلى بني إسرائيل بما صبروا عليه من الأذى الذي ألحقه بهم فرعون.

وبعد هلاكه هو وجنوده قال تعالى:﴿ **فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ وَمَا كَانُوا مُنْظَرِينَ** ﴾[37].وههنا تهكم بهم وبحالهم المنافية لحال من يعظم فقده، فيقال فيه بكت عليه السماء والأرض، فسياق الآية جاء موافقا لما كان متداولا عند العرب، أنه إذا مات رجل خطير قالوا في تعظيم مهلكه: بكت عليه السماء والأرض وبكته الريح وأظلمت له الشمس [38].فجاء الخطاب القرآني بأسلوب التمثيل والتخييل ليبين الدرجة الدنيئة لفرعون وجنوده.

2.2. الحجج الشبه منطقية التي تعتمد على البنى الرياضية :

تعتمد هذه الحجج على البنى الرياضية في تأسيس علاقاتها الداخلية وتلاؤمها، وهو ما يدعم قوتها الحجاجية بغرض الإقناع. وعددها ثلاث وهي: حجج التعدية والتضمن والتقسيم وحجة المقارنة، والحجج القائمة على الاحتمال.

2.2.أ. حجج التعدية والتضمن والتقسيم:

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

تعتمد حجة التعدية (Argument De Transitivité) على القاعدة الرياضية القائمة على أنه إذا كان أ=ب، وب=ج، فإن أ=ج، وتكاد تقدم «أغلب الدراسات المتصلة بالحجاج نفس المثال لتوضيح ما يسمى بحجة التعدية، أو القول بأن صديق صديقي، صديقي أو عدو صديقي عدوي »[39]. ونظير ذلك في قصة موسى –عليه السلام– قوله تعالى: ﴿ **إِذْ أَوْحَيْنَا إِلَى أُمِّكَ مَا يُوحَى أَنِ اقْذِفِيهِ فِي التَّابُوتِ فَاقْذِفِيهِ فِي الْيَمِّ فَلْيُلْقِهِ الْيَمُّ بِالسَّاحِلِ يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِي وَعَدُوٌّ لَهُ وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِنِّي وَلِتُصْنَعَ عَلَى عَيْنِي**﴾[40] فالعداوة المذكورة في الآيات سيقت في شكل معادلة رياضية مؤداها :

فرعون ع . لدو لله تعالى

فرعون عدو لهما معا. ⟸

الله أرسل موسى رسولا

فالعلاقة الأساسية التي تضبط هذه العداوة هي علاقة تعدية، إذ أن « حجج التعدية(Arguments De Transitivité) تقوم على استنتاج علاقات انطلاقا من توظيف قيمة عنصر ثالث يتم المرور عبره لتأكيد صدق العلاقة بين العنصرين الأول والثاني»[41]. فالتعدية تجسدت بواسطة العداوة المحققة والقارة بين رب العالمين ورسوله من جهة وبين فرعون الكافر الذي علا في الأرض من جهة أخرى.

كما تعتبر حجة التضمن(الاشتمال) l'argumentation par inclusion من الحجج القائمة على المبدأ الرياضي.والتضمن من أهم معايير القياس الأرسطي المتكون من مقدمة صغرى وأخرى كبرى ونتيجة [42]، والقائم على أن كل ما يصدق على الكل يصدق على الأجزاء، فهذه الحجة «تقوم في جوهرها على رؤية كمّية، فالكل يتضمن الجزء، من ثمة فهو أهم بكثير من الجزء، ولذلك أيضا تعد قيمة الجزء مناسبة لما تمثله بالنسبة إلى الكل» [43]. فالعلاقة بين الكل والجزء تتأسس على رابط سببي يحكمهما ويتجلى هذا النوع من الحجج في قصة موسى –عليه السلام– من خلال قوله تبارك وتعالى: ﴿ **وَقَارُونَ وَفِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مُوسَى بِالْبَيِّنَاتِ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ وَمَا كَانُوا سَابِقِينَ فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنْبِهِ فَمِنْهُمْ مَنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُمْ مَنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ وَمِنْهُمْ مَنْ خَسَفْنَا بِهِ الْأَرْضَ وَمِنْهُمْ مَنْ أَغْرَقْنَا وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ**﴾[44].تبتدئ هذه الآيتان بعطف على من سبق قارون وفرعون وهامان من الأمم، وهم قوم لوط وعاد وثمود ومدين الذين استكبروا عن عبادة الله مع رسلهم [45] ، فأدركهم أمر الله جميعا، فكان الحاصب لقوم لوط؛ وهي ريح عاصف حصباء؛ والصيحة لمدين وثمود، والخسف لقارون، والغرق لقوم نوح وفرعون، والكل شمله العذاب[46].فلو تدبرنا سياق هاتين الآيتين لوجدنا أن هناك مستويين يحويان حجة الاشتمال:

– **الأول**: قارون وفرعون وهامان :أجزاء من كل متكبر كافر جاءهم موسى بالبينات فاستكبروا عنها وكانوا جاحدين. فما ينطبق على أحدهم ينطبق عليهم ككل.

– **الثاني**: أن كُلاً من قوم لوط وعاد وأهل مدين وقوم ثمود وقوم نوح وفرعون ومن اتبعه من قومه، جاءتهم رسلهم بالبينات الدالات على وحدانية الله وقدرته وعظمته، فلم يصدقوا ولم يؤمنوا بها، فأخذهم الله بعذابه بما كانوا يصنعون. فما ينطبق على فرعون و ملئه ينطبق على من سبقهم من الأمم الجاحدة الكافرة بآي الله و دلائل قدرته. أما حجة التقسيم(Argument De Division) فمؤداها تقسيم الكل إلى الأجزاء التي تؤسسه، فما ينطبق على كل جزء ينطبق على الكل؛ أي «اعتبار كل واحد من هذه الأجزاء بغاية الإقناع بقضية تتعلق بالكل» [47].وقد ورد هذا النوع من الحجج في مواطن متعددة في الخطاب القرآني. ومما ورد منها في قصة موسى –عليه السلام– ما جاء على لسان فرعون في قوله تعالى: ﴿**قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ**

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

قَالَ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنْ كُنْتُمْ مُوقِنِينَ قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُ أَلَا تَسْتَمِعُونَ قَالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمُ الَّذِي أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ قَالَ رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ﴾[48].فالآيات واضحة في إبراز اعتراض فرعون على دعوى موسى –عليه السلام–، وقد استهلها بالاستفسار عن حقيقة المرسِل، وكان يريد(أي شيء هو رب العالمين؟)، واستعمل ما الاستفهامية للدلالة على غير المعلوم ظنا منه أنه من الأشياء التي شوهدت أو عرفت أجناسها، فأجابه موسى بما يُستدل عليه من أفعاله الخاصة ، وأنه شيء مخالف لجميع الأشياء، أي ليس كمثله شيء[49]، وأكد جوابه–عليه السلام– بمجموعة من الحجج الجزئية اتضحت في قوله: (رب السماوات والأرض وما بينهما وربكم ورب آباءكم الأولين ورب المشرق والمغرب وما بينهما)، وكان الانتقال في هذه الحجج من العام إلى الخاص :

الأولى: رب السماوات والأرض وما بينهما، وهو بهذا عرَّف الله بأظهر خواصه وآثاره.

الثانية: ربكم ورب آباءكم الأولين، وهو عدول إلى أن هناك مصور حكيم يكون أقرب للناظر وأوضح عند ما يتأمل في ذاته.

الثالثة: رب المشرق والمغرب وما بينهما؛ أي تشاهدون أنه كل يوم يأتي بالشمس من المشرق ويحركها نحو المغرب على مدار غير مدار اليوم الذي قبله حتى يبلغها إلى المغرب بانتظام دقيق ومحكم [50]. وقد ختم موسى بحجة أخرى تضمنها قوله تعالى: ﴿ **إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ** ﴾[51]، فكلمة "تعقلون" وردت في مقابل كلمة "الجنون"؛ إي جاءت ردا على قول فرعون: "إن رسولكم لمجنون"، وقد أورد موسى هذه الحجة بعد ما أدرك فيهم شدة الإصرار والعناد وقلة الإصغاء[52].يتبين من خلال هذه الآراء، أنه كان بمقدور موسى أن يجيب عن سؤال فرعون بقوله (هو الله) بوحدانيته وقدرته، وأن ليس كمثله شيء، وهي القضية الكلية، لكن تم الانتقال إلى قضايا جزئية (حجج) غرضها الإقناع بالقضية الكلية ، وهي ذكر السماوات والأرض وما بينهما ثم للبيان أنفسهم وآبائهم، وهذا انتقال من العام إلى الخاص، ثم يخصص أكثر بذكر المشرق والمغرب للاستدلال على ما يُدْرك يوميا، ثم ردَّ بكلمة (تعقلون)على من تَوَهَّم فيه الجنون. وإذا أردنا أن نحلل هذه الحجج من حيث الشدة والقوة وترتيبها في المدارج أوالسلالم الحجاجية، باعتبار أن «العلاقة ذات الطبيعة التكوينية للسلالم تتحقق انطلاقا من علاقة التداخل بين الجمل المتضمنة للحجج المختلفة»[53]. يبدو من المفيد الاعتماد على ما ذكره "ديكرو Ducrot"، ذلك أن « ما جاء به ديكرو من تحليل للسلميات الحجاجية إنما يهدف إلى وصف الأقوال وتحديد مراتبها باعتبار وجهتها وقوتها الحجاجيتين، فالسلم الحجاجي بهذا المعنى هو علاقة ترتيبية للحجج»[54] والحجج التي سبق تحليلها تتمايز فيما بينها من حيث الشدة والقوة، إلا أنها لا تكون موفية إلا بشرطين أساسيين يسهمان في تماسكها وهما :

1. كل قول يقع في مرتبة ما من السلّم يُلزم عنه ما يقع تحته، بحيث تلزم عن القول الموجود في الطرف الأعلى جميع الأقوال التي دونه.
2. كل قول كان في السلم دليل على مدلول معين، كان ما يعلوه مرتبة دليل أقوى عليه[55]. فهذه التراتبية للأقوال تؤدي بالمحاجج إلى الانتقال من العام إلى الخاص، أو من الخاص إلى العام؛ أي أنها«تضمن تسلسل حجتين د1 (أ) و د2 (ب) باعتبار أن الحجة الأولى تكون سببا في ظهور الثانية»[56]. ويتضح ذلك في الآيات السابقة حيث انتقل موسى– عليه السلام – من العام إلى الخاص في إثباته لصفات رب العالمين. وفي الإمكان التمثيل لهذه المحاججة على السلم الحجاجي بالشكل الآتي:

النتيجة : رب العالمين

رب كل شيء وخالقه

رب السماوات والأرض وما بينهما

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

حجة لإظهار خواصه وآثاره كلها

ربكم ورب آبائكم الأولين

دليل على خالق الإنسان ومصوره، ويكون أقرب للناظر عند التأمل

رب المشرق والمغرب وما بينهما

لإدراك التعاقب اليومي لليل والنهار

ف ح1 ،ح2،ح3 هي عبارة عن حجج تتمايز من حيث الشدة والقوة، وكان الانتقال فيها من العام إلى الخاص، وهو ما استدل به موسى في رده على فرعون عندما سأله عن رب العالمين، و"رب العالمين أجمعين "هي النتيجة النهائية التي ارتكزت على الحجج الثلاثة السابقة لإثباتها.

2.2.ب. حجة المقارنة La Comparaison :

يتمحور قوام حجة المقارنة في جوهرها حول عملية "القيس Mesure " الرياضية بين طرفي قضية، «حيث نواجه بين عدة أشياء لأجل تقويمها الواحد بالنظر إليه من زاوية الآخر» [57].وهو ما يجعل الحجاج أبلغ وأقنع. فالمقارنة باعتمادها القيس جوهرا يجعلها تقوم على العلاقات الرياضية، وهو ما أكده " جون جاك روبريو jean Jacques robrieux " بقوله: «إن حجج المقارنة هي شبه منطقية، إنها تُقدم في الغالب باعتبارها تأكيدات واقع» [58]. فالمقارنة بهذا المعنى يحتج بها لإثبات أو نفي قضية معينة، إلا أن هناك من ينفي انتماءها إلى الحجج الشبه منطقية، ويدرجها ضمن الحجج المؤسِّسة لبنية الواقع. ومن هؤلاء "أوليفي روبول Olivier Reboul " الذي أكد أن «المقارنة عملية تجريبية مُنشدَّة إلى عملية بناء الواقع، خاصة وأن المقارنة حين تعقد بين طرفين لا تكون بالضرورة واقعية، بل قد تكون مبتدعة لا أساس لها إلا سياق الناس وخيال المحتج»[59]. ونحن بدورنا نرجح رأي" جون جاك روبريو jean Jacques rob rieux " انطلاقا من فكرة القيس والوزن Mesure الرياضية التي تعتمد عليها المقارنة في حد طرفي قضية معينة

تتمظهر حجج المقارنة في الخطاب القرآني بشكل جلي، ونظير ذلك في قصة موسى –عليه السلام– قول الله جل وعلا على لسان موسى مشيرا إلى لكنته طالبا العضد لأخيه هارون الفصيح اللسان: ﴿ **قَالَ رَبِّ إِنِّي قَتَلْتُ مِنْهُمْ نَفْسًا فَأَخَافُ أَنْ يَقْتُلُونِ وَأَخِي هَارُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا فَأَرْسِلْهُ مَعِيَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِي إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُكَذِّبُونِ قَالَ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَانًا فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا بِآيَاتِنَا أَنْتُمَا وَمَنِ اتَّبَعَكُمَا الْغَالِبُونَ** ﴾[60]، وعندما أمر الله تعالى موسى بالذهاب إلى فرعون و تبليغه الرسالة قال تعالى: ﴿ **اذْهَبْ إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى قَالَ رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي وَيَسِّرْ لِي أَمْرِي وَاحْلُلْ عُقْدَةً**

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

مِنْ لِسَانِي يَفْقَهُوا قَوْلِي وَاجْعَلْ لِي وَزِيرًا مِنْ أَهْلِي هَارُونَ أَخِي اشْدُدْ بِهِ أَزْرِي وَأَشْرِكْهُ فِي أَمْرِي كَيْ نُسَبِّحَكَ كَثِيرًا وَنَذْكُرَكَ كَثِيرًا إِنَّكَ كُنْتَ بِنَا بَصِيرًا قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَا مُوسَى ﴾[61] ، وفي قوله عز اسمه على لسان فرعون في وصفه لموسى: ﴿ **وَنَادَى فِرْعَوْنُ فِي قَوْمِهِ قَالَ يَا قَوْمِ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِي مِنْ تَحْتِي أَفَلَا تُبْصِرُونَ أَمْ أَنَا خَيْرٌ مِنْ هَذَا الَّذِي هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ**﴾[62]، ففي هذه الآيات كلها إشارات إلى الآفة التي في لسان موسى، ومن ثم جاء طلب موسى من الله تعالى أن يمده بأخيه معينا على بسط رسالته، لأن أخاه كان أفصح منه، وإن كان كلاهما فصيحا، ودليل ذلك قوله تعالى: ﴿**أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا**﴾[63]، والغرض من ذلك كله أن يلخص هارون الحق على لسانه لإقناع فرعون والملأ [64] ، وقد أشار إلى ذلك الزمخشري بقوله: «ليس الغرض تصديقه أن يقول له صدقت، أو يقول للناس صدق موسى، و إنما هو أن يلخص بلسانه الحق ويبسط القول فيه ويجادل به الكفار، كما يفعل الرجل المنطيق ذو العارضة...فأسند التصديق إلى هارون، لأنه السبب فيه، إسنادا مجازيا *»[65]. ففصاحة هارون أنزلته منزلة المحاجج المساعد لأخيه موسى عليه السلام.

فوجه التشابه بين موسى وأخيه هارون –عليهما السلام – يكمن في أن كل منهما يشترك في النبوة والرسالة، وبيان ذلك في قوله تعالى: ﴿ **اذْهَبَا إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَيِّنًا لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى** ﴾[66]، وكذلك قول الحق﴿**فَأْتِيَا فِرْعَوْنَ فَقُولَا إِنَّا رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ** ﴾[67]. إذ يتبين من هذه الآيات إلى أنهما رسول واحد لأن رسالتهما واحدة[68]. وإذا نظرنا إلى كل واحد منهما على حده فهما رسولان، إلا أن وجه المقارنة بينهما يكمن في أن هارون أزيد فصاحة من موسى وأقدر على إقناع القوم بيانا، ولذلك طلب موسى –عليه السلام – من المولى القدير أن يشد عضده بأخيه هارون معينا.

وفي تطبيقنا لمبدأ السلّم الحجاجي ضمن حجة المقارنة، وجدنا أن الأقوال الواردة في الآيات السالفة الذكر تختلف من حيث التراتبية اعتمادا على منطق القوة والشدة والغرض التأثيري، وسنمثل لتراتب هذه الحجج بالشكل الآتي :

النتيجة :هارون أفصح من موسى

ج1 ↑ على لسان موسى: "وأخي هارون هو أفصح مني لسانا فأرسله معي ردءا"

سورة القصص:الآية 34.

ج 2 ↑ على لسان موسى: "واحلل عقدة من لساني يفقهوا قولي"

سورة طه: الآيتان27-28.

ج 3 ↑ على لسان فرعون: "أم أنا خير من هذا الذي هو مهين ولا يكاد يبين"

سورة الشعراء:الآية 16.

فإذا أردنا أن نقف على هذه الحجج المتباينة من منطلق أن الحجج ليست ضربا واحدا بل ضروب مختلفة، وجدنا أنها تختلف بحسب المقام الذي تتنزل فيه.

أما من حيث القوة والشدة في المدارج الحجاجية فسنوضحها كما يلي :

هارون أفصح من موسى وهي النتيجة الكلية.

أما الحجج التي تثبت هذه النتيجة فهي :

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

الأولى: تتمثل في وصف فرعون لموسى على أنه لا يبين في كلامه؛ أي به عاهة في لسانه.

الثانية: متمثلة في طلب موسى من ربّه أن يحلل عقدة لسانه ليُفهم ويتضح قوله.

الثالثة : وهي أقوى الحجج، عندما أقرّ موسى أن أخاه هارون أفصح منه لسانا، رغم أنهما فصيحان، وهي آخر حجة أحالت على النتيجة الكلية.

2.2.ج. الحجج القائمة على الاحتمال L'argument Par Le Probable :

تقوم هذه الحجج على مبدأ النسبية، وتتعلق بما يمكن أن يحققه المرء من أهداف عن طريق التوقُّع؛ أي أنها تتمركز حول أن « الإيمان بأن المطلق نادر ،وأن الأمر لا يعدو أن يكون في أغلب الحالات محتملا»[69]،الأمر الذي يجعل هذا النوع من الحجج مجسدا في التواصلات اليومية بين البشر عسى أن يدرك المتخاطبون ضالتهم. ونظير ذلك في قصة موسى –عليه السلام– قوله تعالى: ﴿**وَأَوْحَيْنَا إِلَى أُمِّ مُوسَى أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ فَالْتَقَطَهُ آَلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا خَاطِئِينَ وَقَالَتِ امْرَأَةُ فِرْعَوْنَ قُرَّةُ عَيْنٍ لِي وَلَكَ لَا تَقْتُلُوهُ عَسَى أَنْ يَنْفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ**﴾[70]. فسياق آخر هذه الآي يدل على الاحتمال القائم على التمني والرجاء لدى امرأة فرعون التي كانت تأمل في جلب المنفعة والخير والأمل من جراء تربية موسى وتبنيه، ويتضح ذلك في قوله تعالى على لسانها﴿**عَسَى أَنْ يَنْفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا**﴾، لأن موسى –عليه السلام– كانت تظهر عليه منذ صباه «مخايل اليمن ودلائل النفع لأهله، وذلك لما عاينت من النور وارتضاع الإبهام وبرء البرصاء، ولعلها توسمت في سماه النجابة المؤذنة بكونه نفّاعا. أو تتبناه فإنه أهل للتبني، ولأن يكون ولدا لبعض الملوك»[71].غير أن آل فرعون لم يكونوا يتوقعون أن هلاكهم سيكون على أيديهم، وأنهم على خطأ عظيم فيما قاموا به وما يحتملونه ويتوقعونه وذلك في قوله تعالى: ﴿ **وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ** ﴾ وهي «حال من الملتقطين أو من القائلة والمقول له؛ أي وهم لا يشعرون أو هم على الخطأ في التقاطه أو في طمع النفع والتبني له»[72]. وهو ما يفسر أن امرأة فرعون احتجت بالأمل المحتمل في جلب المنفعة على يد موسى–عليه السلام–، كما تمنت أن تتخذه ولدا وربما تبركت به لعلها تنجب مثله. فالأمل والترجي والتمني كلها أحاسيس ومشاعر قائمة على التوقع المستقبلي (الاحتمال)، وهو ما يمثل صورة حجاجية احتمالية .

خاتمة:

من خلال دراستنا للحجج الشبه منطقية في قصة موسى –عليه السلام — توصلنا إلى روافد الحجاج بتقنياته المختلفة تبدو المؤسسة لبنية هذه القصة، وهي العامل الأساس الذي جعل هذه القصة تحقق فاعليتها الإقناعية، باعتبار أن الحجج المشكلة لمختلف الطرائق الاتصالية فيها، تحمل في ذاتها طاقة حجاجية إنْ ظاهرة أو ضمنية، تجعلها أكثر قوة لحمل المتلقي على التسليم بما يعرض عليه من أفكار وأطروحات، وإقناعه بها.

وفي خضم هذه المحاولات العلمية آن لي أن أخلُص إلى جملة من النتائج، تعد بمثابة استنتاجات توصلت إليها من خلال هذا البحث، وهي:

1 – توصلت إلى أن الحجاج فعل لغوي غائي، يتحقق بين ذوات فعالة ونشيطة، يسعى المرسل من خلاله حمل المتلقي على الإذعان، والسعي إلى إقناعه بشتى الآليات المختلفة حسب المقام.

2 – استنتاج أن الاستدلال البرهاني والحجاجي متعلقان بالخطاب. إلا أن البرهنة تخص المنطق الرياضي الصوري، أما الحجاج فيرتبط باللغة الطبيعية، التي تعتمد على المنطق الطبيعي الذي هو جزء من البنية العقلية عند الإنسان.

3 – يختلف الحجاج باختلاف الطبقات المقامية التي يتنزل فيها، ويفرض على المحاجج اختيار التقنيات الحجاجية بتراكيبها ومعانيها المختلفة والمتعددة التي تتماشى والسياقات التي تُنْتَج فيها الخطابات، وتنسجم تمام الانسجام مع غاية الخطاب الحجاجي.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

4 – تتشكل البنية الحجاجية لقصة موسى –عليه السلام– من حجج متعددة ومتنوعة، وأحيانا تكون في سياق واحد. وتتسم بالانفتاح، وتهدف إلى إقناع أكبر عدد ممكن من المتلقين. والأكثر من ذلك أنها تسعى إلى إقناع المتلقي الكوني عبر الحقب الزمانية المختلفة، خاصة عندما تخاطب الحس والعقل، كما في قوله تعالى:﴿وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَادَّارَأْتُمْ فِيهَا وَاللَّهُ مُخْرِجٌ مَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ فَقُلْنَا اضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا كَذَلِكَ يُحْيِي اللَّهُ الْمَوْتَى وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾.سورة البقرة.الآيتان 72–73.

5 – إن الحجاج في قصة موسى –عليه السلام – يكون أحيانا ضمنيا وخفيا، ذلك أن الحجج المشكلة لبنية القصة تكون ظاهرية، وفي أغلب الأحيان تكون ضمنية على شكل طاقة حجاجية تكمن داخل بنية الخطاب الإلهي. وتسعى إلى إقحام عالم المتلقي وإرغامه على إمعان عقله، في فهم ما خفي من أسرار في هذا الخطاب. وهو ما يجعل الحجاج في القرآن الكريم يتجاوز منطق التفسير بتعدد الاحتمالات والقراءات إلى ما يسمى بالتأويل؛ فما يكون خفيا على مستوى الخطاب يكون أبلغ وأهم مما يكون صريحا يمنح للمتلقي جاهزا دون عناء كبير، فأجزاء القصة تتماسك وتتسق وتنسجم فيما بينها بطريقة خفية، لا نكاد نلمسها إلا بالقراءة المعمقة المتأنية التي يسعى المتلقي من خلالها فك الرسائل المشفرة، والدلالات العميقة الكامنة في بنية القصة.

6 – أما على مستوى العلاقات الحجاجية بين الوقائع والأحداث في قصة موسى –عليه السلام– فنجد الربط يتجلى بين الحُجج والنتائج مباشرة في أغلب الأحيان دون استعمال الروابط الحجاجية، ويكون ذلك الربط ظاهريا أحيانا وضمنيا أحيانا أخرى، الأمر الذي يؤدي بالمتلقي بمشاعره وفكره إلى التغلغل (الغوص) في البنية العميقة لفهم مقاصد المرسل لا الاكتفاء بظاهر الخطاب القرآني، وهو صفة من صفة إعجاز القرآن وبلاغته.

7 – يمتاز الخطاب الحجاجي المؤسس لبنية قصة موسى –عليه السلام– بالتماسك والانسجام والتوافق، وذلك على مستوى اللفظ والتركيب والصورة و الإيقاع، وهو ما يحيلنا على الجانب الجمالي الذي يسعى إلى الإثارة لتحقيق الإقناع. فالمتلقي يلاحظ بل يدرك سمو الخطاب القرآني الحجاجي نظما ومعنى مصداقا لقوله تعالى :﴿ قُلْ لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا﴾سورة الإسراء .الآية 88. وهو ما يجعله يحافظ على طاقته الإيحائية خاصة عند العدول عن مقتضى الظاهر والخروج عن المألوف. وتظهر الصورة موحية بالدلالات المعبرة عن حال القوم وأوضاعهم، ومن ثم نرى أن الاتساق والانسجام في الخطاب الحجاجي القرآني عاملان أساسيان في تحقيق الفاعلية الإقناعية، ولا معنى للحجاج إذا لم يكن مؤثرا مقنعا.

وبما أن الكمال صفة متعلقة بذات الله تعالى وحده لا غير سواه، بِوَدّي أن أعتذر وكأي باحث عن أي نقص صدر منا سهوا أو تقصيرا أو خطأ، خاصة في حق التعامل مع الخطاب القرآني، الذي يفرض على مُتناولِه أقصى مبادئ التأدب والاستسلام. وأسأل الله تعالى أن يوفقني وقارئ هذا البحث ويسدد خطانا ويجعلنا في خدمة الصالح العام.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

الهوامش:

1. الحجاج في الشعر العربي القديم من الجاهلية إلى القرن الثاني للهجرة بنيته وأساليبه–سامية الدريدي –ص21 –عن مصنف في الحجاج: البلاغة الجديدة – بيرلمان وتيتكاه–المطابع الجامعية بليون–1981–ج1–ص13.
2. النظرية الحجاجية من خلال الدراسات البلاغية والمنطقية واللسانية– محمد طروس– المغرب –دار الثقافة –ط1 –2005 – ص14.
3. حجاجية التأويل في البلاغة المعاصرة – محمد ولد الأمين– ليبيا– المركز العالمي لدراسات أبحاث الكتاب الأخضر– 2004– ط1–ص15.
4. الحجاج في الشعر العربي القديم من الجاهلية إلى القرن الثاني للهجرة بنيته وأساليبه – سامية الدريدي –ص21.
5. استراتيجيات الخطاب–عبد الهادي بن ظافر الشهري –عن سلطة الكلام وقوة الكلمات –أبو بكر العزاوي– مجلة المناهل – وزارة الثقافة والاتصال المغربية–السنة25 العدد 62–63 ضفر 1422 هـ –ماي2001–ص142–143.
6. المحكم والمحيط الأعظم– ابن سيده –تحقيق: عبد الحميد هنداوي–لبنان –دار الكتب العلمية–مادة (حجج).
7. لسان العرب –ابن منظور–لبنان –دار صادر –ط1–المجلد 2–مادة (حجج)
8. الحجاج في القرآن الكريم من خلال أهم خصائصه الأسلوبية – عبد الله صولة –ص27 عن traité de l ' argumentation ,p5.
9. في أصول الحوار وتجديد علم الكلام – طه عبد الرحمن– المعرب–المركز الثقافي العربي–ط3–2007–ص65
10. مفتاح الوصول إلى علم الأصول– محمد الطيب الفاسي –في شرح خلاصة الأصول –عبد القادر الفاسي –تحقيق إدريس الفاسي الفهري–الإمارات العربية المتحدة–دار البحوث للدراسات الاسلامية وإحياء التراث–ط1–2004–ص308.
11. ينظر في أصول الحوار وتجديد علم الكلام–طه عبد الرحمن–ص65.
12. الحجاج في الشعر العربي القديم من الجاهلية إلى القرن الثاني للهجرة بنيته وأساليبه– سامية الدريدي –ص191
13. دلائل الإعجاز– عبد القاهر الجرجاني– لبنان– دار المعرفة–ط3–2001–ص44.
14. بلاغة السرد القصصي في القرآن الكريم قصة يوسف نموذجا –ابراهيم عبد المنعم ابراهيم – مصر –مكتبة الآداب–ط1– 2008–ص17.
15. إعجاز القرآن والبلاغة النبوية– مصطفى صادق الرافعي–لبنان –دار الكتب العلمية–ط1–2000–ص104.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

16. سورة النساء–الآية 82.
17. الإحكام في أصول الأحكام– ابن حزم–تحقيق:محمود حامد عثمان –القاهرة –دار الحديث–2005–ج2 –ص200.وينظر البرهان في علوم القرآن –الزركشي–تحقيق: أبو الفضل الدمياطي–القاهرة –دار الحديث–2006–ص361.
18. الحجاج في الشعر العربي القديم من الجاهلية إلى القرن الثاني للهجرة بنيته وأساليبه–ص192
19. سورة البقرة–الآية 67.
20. الكشاف– الزمخشري –شرح وضبط يوسف الحمادي–مصر–مكتبة مصر–ج1–ص139.
21. سورة البقرة–الآية 67.
22. تفسير الشعراوي – محمد متولي الشعراوي –مصر – دار أخبار اليوم –1997–ج1–ص97.
23. الحجاج في الشعر العربي القديم من الجاهلية إلى القرن الثاني للهجرة بنيته وأساليبه– سامية الدريدي –ص200.
24. الحجاج في البلاغة المعاصرة –محمد سالم محمد الأمين الطلبة– ليبيا–دار الكتاب الجديدة المتحدة–ط1–2008–ص128.
25. الاستعارة في محطات يونانية وعربية وغربية –محمد الولي–ص378.
26. سورة طه –الآيات 56–59.
27. روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني –الألوسي–لبنان–دار إحياء التراث العربي –1353هـ– ط2–ج16–ص216.
28. سورة طه–الآية 57.
29. ينظر تفسير الشعراوي – محمد متولي الشعراوي – ص9301 و9302.
30. البنية السردية في القصص القرآني –محمد طول– الجزائر– ديوان المطبوعات الجامعية –ص105.
31. سورة الأعراف –الآية 116.
32. تفسير الشعراوي – محمد متولي الشعراوي ––ص9302.
33. الحجاج في البلاغة المعاصرة –محمد سالم محمد الأمين الطلبة–ص129.
34. المرجع نفسه –ص201.
35. سورة الدخان–الآية 23–29.
36. ينظر الكشاف – الزمخشري–ج4–ص178.
37. سورة الدخان – الآية 29.
38. ينظر الكشاف– الزمخشري–ج 4–ص179.
39. الحجاج في الشعر العربي القديم من الجاهلية إلى القرن الثاني للهجرة بنيته وأساليبه –سمية الدريدي–ص205.
40. سورة طه –الآية 38–39.
41. الحجاج في البلاغة المعاصرة –محمد سالم محمد الأمين الطلبة–ص129.
42. ينظر الحجاج في البلاغة المعاصرة – محمد سالم محمد الأمين الطلبة –ص129.
43. الحجاج في الشعر العربي القديم من الجاهلية إلى القرن الثاني للهجرة بنيته وأساليبه –سامية الدريدي–ص210
44. سورة العنكبوت –الآيتين 39–40
45. ينظر البحر المحيط –أبو حيان الأندلسي –بيروت–دار الفكر–2005–ج8–ص357.
46. ينظر الكشاف–الزمخشري–ج3–ص487.
47. الاستعارة في محطات يونانية وعربية وغربية –محمد الولي–ص380.
48. سورة الشعراء–الآيات 23–28.
49. ينظر الكشاف –الزمخشري –ج3–ص355.أنوار التنزيل –البيضاوي – ج4–ص136.روح المعاني – الألوسي–ج19–ص71 و72.
50. ينظر الكشاف –الزمخشري– ج3– ص355.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

51. سورة الشعراء –الآية 28.

52. ينظر الكشاف–الزمخشري–ج3–ص365. تفسير الشعراوي – محمد متولي الشعراوي – ص10559.

53. **L'argumentation Dans La Langue– Jean–Claude Anscomdre Et Ducrot– Mardaga 3 Eme Edition –Belgique–p55**

54. الحجاج في الشعر العربي القديم من الجاهلية إلة القرن الثاني للهجرة بنيته وأساليبه–سامية الدريدي–ص255.

55. اللسان والميزان أو التكوثر العقلي –طه عبد الرحمن–ص277.

56. **L'elementd D'analyse Du Discours –Georges–Elia Sarfati –Franc Nathan – 1997–P33.**

57. الاستعارة في محطات يونانية وعربية وغربية –محمد الولي –ص382.

58. الاستعارة في محطات يونانية وعربية وغربية–محمد الولي –ص382.عن **Elément de rhétorique et de l'argumentation – jean Jacques rob rieux –dunod–1993–p.p.117–118–.**

59. الحجاج في الشعر العربي القديم من الجاهلية إلى القرن الثاني للهجرة بنيته وأساليبه –سامية الدريدي–ص248.

60. سورة القصص–الآيات 33–35

61. سورة طه– الآيات24–36.

62. سورة الزخرف–الآيتين 51–52.

63. سورة القصص– الآية 34.

64. ينظر روح المعاني –الألوسي –ج20–ص77 .

الإسناد المجازي :أن التصديق حقيقة في المصدق ؛ فإسناده إليه حقيقة وليس في السبب تصديق ،ولكن استعير له الإسناد لأنه لابس التصديق بالتسبُّب كما لابس الفاعل بالمباشرة .الكشاف –الزمخشري –ج3–ص– 449.

65. الكشاف–الزمخشري–ج3–ص449.

66. سورة طه –الآيتان43–44.

67. سورة الشعراء–ا لآية 16.

68. ينظر تفسير الشعراوي – محمد متولي الشعراوي –ص10920.

69. الحجاج في الشعر العربي القديم من الجاهلية إلى القرن الثاني للهجرة بنيته وأساليبه –سامية الدريدي–ص213.

70. سورة القصص– الآيات7–9.

71. الكشاف– الزمخشري–ج3–ص435.ينظر أنوار التنزيل –البيضاوي– ج4–ص172.روح المعاني –الألوسي–ج20–ص47 و48.

72. أنوار التنزيل –البيضاوي – ج4 –ص172.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com